توطئة

الحمد الله رب العالمين الذى خلق الإنسان، وعلمه البيان، وأرسل رسله بالهدى والبيان، ثم أرسل أشرفهم وأفضلهم وخاتمهم محمداً – صلى الله عليه وسلم بأقدس كتاب وأبلغ بيان.

وبعد...

فقد بقى الأدب حقباً من التاريخ، وردحاً طويلا من الزمان فى أمم شتىَّ تحت رحمة الأدباء والكتاب، والباحثين والمؤخين الذين اعتادوا النظر إلى الأدب من زاوية الصناعة والفن، ولا يعدونه فى الأغلب الأعم إلا أداة من أدوات التسلية، أو آلة من آلات الطرب، وكان شبيهاً بالبلبل الغريد السجين، فإن كان طائرا مدللا فى قفص من ذهب تقدم أطايب الطعام والشراب؛ غرد بمديح سيده، وعزف على الأوتار أعذب الألحان، وإن ضيق عليه؛ صدع بالهجاء والرثاء والعتاب، والشتائم والسباب. أما أن يكون ذلك الطائر حُرّا طليقا، ينطلق فى الأجواء، ويحلق فى السماء، مرفرفاً بجناحيه، يغرد أنى شاء، ويمرح شاديا بالأسجاع كيف يشاء، فلا يمكن أن يتحقق له ذلك.. فالأدب يمثل الحياة ويصورها بالألفاظ والمعانى، فتبدو فيه ملامح السكون والحياة بأشكالها المتنوعة، فعندما يفوتنا النظر إلى الحياة مباشرة، فإننا ننظر إليها ونشاهدها من خلال النظر إلى مرآة الأدب، شريطة أن يجيد الأديب أو الشاعر عمله، وتحسن ملكته، وتصدق مقدرته، وبذلك يصبح الأدب سبباً لتخليد أحداث الحياة وصورها.. فبالأدب يصل الإنسان إلى فهم ظواهر الحياة،

وتذوق كيفياتها. كما أن الأدب يتسع باتساع الحياة. وتتعدد جوانبه ونواحيه بتعدد جوانب الحياة ونواحيها، ولقد ظنت كثرة كاثرة من الناس أن الأدب إذا كان جاهليا فاسقاً، وماجناً فاضحاً، فذلك أمارة عراقته، ودليل على متانته، وقوة سبكه وجودته. أما إن كان دينيا، فليس من حقه أن يدعى أدبا، أو يسمى شعراً، لأنه جاء إسلاميا، خلواً من ألوان العهر والعبث والمجون واللذة والمتعة واللهو. أجل قد يكون الأدب فاسقاً وماجنا وداعراً، بيد أن هذه الملامح، وتلك الخصائص ليست من مقومات الأدب؛ بل ولا من خصائصه اللائقة، مهما أقبل عليه الناس، وطربوا له، وأغرموا بإنشاده. والأدب الذى يغلب عليه طابع الإسلام، ويجئ مصبوغا بصبغته الدينية، فهذه المعانى وتلك الملامح الإسلامية لا تفقده حسن الرواء أو القوة والجمال. والأدب الإسلامى قد تغلب عليه الصبغة الدينية، كما ترى ذلك فى الأدعية والوعظ والابتهالات، وقد يكون ذلك فى إطار الحياة العامة الملتزمة فى الإسلام. والحياة فى الإسلام حياة واسعة، تتسع مع تنوع الحاجات الإنسانية وأحوالها، ولذلك نرى أن الأدب الإسلامى غير عاجزٍ عن تلبية حوائج الإنسان الطبيعية، ولا يشعر بالعجز أو القصور فى الأدب الإسلامى إلا الذين يتصورون فى الإسلام نفسه العجز والقصور، مع أن الإسلام من ذلك براء، وخير مثال على ذلك حياة النبى محمد ﷺ فقد كانت حياة إسلامية وإنسانية حافلة شاملة تنتظم أمور الحياة كلها. وقد صورها لنا أصدق تصوير أدبه ﷺ. وقد امتاز الأدب الإسلامى بالمشاعر الرقيقة، والعاطفة الفياضة والأسلوب الجزل. كما امتاز أدب النبى ﷺ – فوق ما تقدم – بالمنهج التربوى الحكيم، مع الجوانب البلاغية واللغوية والنفسية. وكيف لا؟ وقد أوتى جوامع الكلم. وقد تجلى ذلك فى حديثه الشريف، وخطبه العصماء ﷺ. يقول شوقى – رحمه الله:

وإذا خطبت فللمنابر هزةٌ تعرو الندى وللقلوب بكاءُ

كما أن لصحابته – رضوان الله تعالى عليهم – أدباً عالياً نلمح فيه الجوانب البلاغية والنفسية، والدعوية.

وفى هذا الكتاب تحدثت عن الأدب الإسلامى، شعرا ونثرا، وأثبت فيه نماذج متعددة الأغراض لشعراء إسلاميين، وفى مناسبات متباينة، وهى أشعار دافقة بالإحساس، فياضة بالمشاعر، متينة النسج، قوية السبك، ملأى بالألوان البلاغية الشيقة التى تستهوى الأفئدة، وتخلب الألباب، وتأخذ بتلابيب النفس، وتمسك بأزمة البلاغة، وتحيط بناصية البيان، كما يحيط السوار بمعصم الحسناء. ثم أثبت بعض النصوص القرآنية، وهى قمة الأدب والإعجاز البيانى واللغوى، وكذلك نصوصاً من الحديث النبوى الشريف لأبلغ من نطق بالضاد محمد – عليه الصلاة والسلام – كما ذكرت بعضا من خطبه – ﷺ – وخطب الخلفاء الراشدين – رضى الله تعالى عنهم أجمعين – وبعض الرسائل الإسلامية، والحكم والأمثال الإسلامية، التى جاءت على لسان المصطفى – عليه الصلاة والسلام – وبعض أصحابه والزاهدين – رضوان الله عليهم.

شطورة

غرة رمضان ١٤١٦ هـ